الباب الخامس عشر

الانحراف فى وظائف العقل

إن الصورة التى رسمها فرويد لعقل الإنسان والتى شرحناها بما سمحت به الظروف فى الصفحات السابقة ، هذه الصورة تمتاز عن الصورة التقليدية فى علم النفس ، بأنها تفسر السلوك العادى للإنسان ، وتفسر فوق ذلك مايبدو فى سلوك الأطفال من الخصائص التى تميز هذه الفترة من حياة الإنسان ، كما أنها تبين لنا كيف تحدث الهفوات فى تأدية العقل لوظيفته وتفسر لنا حدوث أحلام النوم وأحلام اليقظة ، تفسر جميع هذه بنظرية واحدة بسيطة نسبيا .

ففى كل هـذه الحالات تجد أن اللاشعور هو العامل الأساسى فى تكييف سلوك الإنسـان ، وقد شرحنا القواعد التى يعمل اللاشعور طبقا لها ، وهـذه القواعد هى هى ، لاتتغير ، سواء فى الأحلام ، أو سقطات اللسان ، أو فى غيرها . وهناك تفاعل دائم بين قوى العقل : النزعات من جهة والأنا العليا من جهة أخرى ، وبينهما الذات الشعورية (الأنا) التى تمثل عالم الواقع ، وعلى قدر مافى هذا التفاعل من سلاسة ومرونة ، على قدر مايكون العقل سليما ، أى أن العقل السليم هو الذى تستطيع أناه أن توفق توفيقـا سليما بين النزعات (الهى) وبين مطالب الأنا العليا ، ومطالب البيئة الخارجية ، وتمتـاز الحياة العقلية السليمة بالخلو من التوتر ، والشد والجـذب القويين ، وغير ذلك من مظاهر الصراع النفسى ، فإذا وجدت هذه المظاهر فإن النتيجة هى أن ينحرف العقل عن تأدية وظيفته انحرافا بينا ، ويقال فى هـذه الحالة إن الشخص مصاب باضطراب عصبى أو "عصاب" .

ولكن هل يخلو شخص ما من مظاهر الصراع ؟ الواقع أن لكل شخص نصيبا من هذه المظاهر ، غير أن الفرق بين السليم والعصابى[1] فرق فى الدرجة .

---

(١) Neurotic

فمن كانت صبغة حياته الغالبة هى الهدوء والاستقرار والسلاسة، وكانت مظاهر الصراع طوارئ تزول ولا تترك أثرا واضحا أو دائما فى حياة الشخص، فهو سليم.

وأما من كانت صبغة حياته الغالبة هى الصراع: يبدو فى قلقه واضطرابه وما ينتابه من الوساوس والهواجس، ويبدو فى أفكار تقتحم عليه شعوره وتنتزعه من حياة المنطق والواقع، وفى أعمال يجد نفسه مقسورا على إتيانها لا يستطيع منها فكاكا، يجد نفسه ثائرة حائرة يتناوبها الشد والجذب، وليس لها من الاستقرار والسلاسة إلا النزر اليسير، من كانت هذه صبغة حياته، اعتبر مصابا بالاضطراب العصبى "عصاب" والمصابون بهذا النوع من الانحراف العقلى يعيشون بين سائر الناس، ويعملون معهم ولكنهم يكونون فى غالب الأمر تعساء، يشعرون تمام الشعور بما هم فيه، ويحاولون بمختلف الطرق أن يملكوا زمام أنفسهم فلا يستطيعون، فمنهم من يشكو من مخاوف أو شكوك عنيفة بغير مبرر حقيق، ويعيش عبدا لهواجسه، ومنهم من يصيبه الخجل والارتباك الشديدين فى حضرة الآخرين، حتى إنه ليتنحى عن الناس أكثر الوقت، ويبقى وحيدا منفردا، ومنهم من تسود عقله أفكار ثابتة تنغص عليه عيشه، ومنهم من يجد نفسه ملزما بالقيام بحركات أو أعمال لا مبرر لها، بل ومنهم من يصيبه عجز جثمانى، فتقف بعض أعضائه أو حواسه عن تأدية وظائفها بغير علة عضوية، إلى غير ذلك.

وتأتى بعد ذلك طائفة المصابين بأمراض "عقلية" "ذهانيين"[1] وهم أولئك الذين يبلغ من انحرافهم أنهم لا يستطيعون أن يعاشروا الناس فى حياتهم، ويبلغ من شذوذهم أن يصبحوا فى بعض الحالات خطرا على الناس أو على أنفسهم، فيحجزون فى مستشفيات الأمراض العقلية. وهم فى الغالب لا يشعرون ولا يعترفون بما عندهم من شذوذ متنوع الأشكال، فمنهم من يبقى وحيدا منفصلا عما حوله وقد تدلت رأسه بين كتفيه، يعيش نهبا لأفكاره السوداء، كأنما هو موكل بتعذيب نفسه إلى آخر حياته، ومنهم من تأتى عليه فترات يهتاج فيها ويبدو عليه العنف والوحشية، فيعتدى، ويهشم، ويضرب، ويؤذى غيره ونفسه أبلغ الأذى، ويستمر على هذا الهياج ساعات بل أياما وهو يبذل جهدا لا يقدر عليه السليم مهما حاول.

---

(1) Psychotics

وهكذا نرى أن الشذوذ على درجات: منها ما يمكن احتماله بشيء من السهولة والبساطة ، ومنها ما لا يحتمل إلا بالجهد وشق النفس ، ومنها ما يخرج عن الطوق خروجا تاما . والفرق بين السليم والشاذ هو إذن فرق فى الدرجة لا فى النوع ، فالمجانين ، أو مضطربو الأعصاب لا يكونون جنسا قائما بذاته ، يختلف عن غيرهم من الناس ، وإنما هم أناس قد بولغ فى بعض نواحى الضعف عندهم المبالغة التى أخرجتهم عن نطاق العاديين من الناس حتى لا تكاد تجد بينهم شبها ظاهرا فى بعض الأحيان ، وبعبارة أخرى فإن الشخص العادى السليم العقل ، فى نفسه جميع البذور التى إذا نمت وتفرعت ، وامتدت أغصانها وجذورها وتشعبت ، أدت إلى الاضطراب أو الجنون . أليس الطفل فى سلوكه وفى نزواته ، أشبه بمرضى الأعصاب منه بالأصحاء من الناس ؟ أليس مريض الأعصاب شخصا قد نما جسمه وجاوز سنه عهد الطفولة ولكن نواحى من عقله لا تزال فى طفولتها عن طريق التثبيت أو النكوص[1] ؟ أو ليس المرض العقلى أو الجنون نكوصا إلى دور بدائى جدا فى حياة الطفل ، قبل أن يدخل على نزعاته تهذيب أو تعديل من أى نوع ؟ أليس الشخص العاقل فى أحلامه "يجن" ، تمر به الأفكار والصور ملتوية ، ناشزة ، مضطربة ؟ أليس هو طفلا تأتيه المخاوف المتناهية فى الشدة لأتفه الأسباب ؟

لعل التحليل النفسى لم ينجح إلا لأنه قد وحّد ما بين الحياة العقلية للإنسان فى مختلف أدوار نموه ، وفى متنوع حالاته العقلية . فهو فى ذلك قد عمل ما عمله الطب الحديث فى نظرته إلى المرض باعتبار أنه نوع من الاضطراب فى تأدية وظيفة طبيعية عادية ، فمريض القلب لا يختلف عن السليم إلا فى أن قلبه يبالغ أو يقصّر فى تأدية وظيفته ، والخلايا المصابة بالسرطان خلايا تبالغ فى سرعة النمو والانقسام والتكاثر ، والحمى تنشأ عن "تحمية" عامة فى وظائف الجسم الحيوية ، والحموضة مبالغة فى إفراز أحماض المعدة الخ وكل هذه إنما هى مظاهر لاختلال عميق فى توافق الكائن الحى مع بيئته ، فى النواحى السلبية والإيجابية ، وهى نتيجة محاولات يبذلها الجسم لكى يعيد هذا التوافق إلى حاله ، أو لكى يبذل الجهد المطلوب فى الظروف الشاذة التى فرضت عليه ، (والانحراف العقلى مثل ذلك تماما

---

(١) Regression انظر ص ٥٧

فهو ينشأ من فشل التوافق بين العقل والبيئة ، وهذا الفشل يظهر فى مظاهر (تعويضية) مختلفة للشذوذ العقلى . والمبدأ الأساسى الذى تنبنى عليه كل هذه الأعراض هو الصراع اللاشعورى بين دوافع الغريزة "الهى" ومطالب البيئة ممثلة فى الذات "الأنا" ، ثم الأنا العليا .

ونتائج الصراع متنوعة متفاوتة ولكنها لاتخرج عما يلى :

١ — الإعلاء : حيث يطرأ على الدوافع الجنسية تغيير يؤدى الى أن تفقد خاصة "الجنس" وتحيد فتتجه الى أهداف غير جنسية . وقد سبق أن شرحناه بالتفصيل .

٢ — رد الفعل[١] : حيث يحدث عكس الإعلاء من حيث اتجاه الطاقة ، ففى الاعلاء تُشتق الطاقة من الدوافع الغريزية نفسها وتندفع فى اتجاه مغاير ولو أنه موازٍ بعض الشىء لاتجاهها الأصلى ، لكى تحاشى القوى المضادة أو "القوى الكابتة" ، فيكون سلوك الشخص معبرا عن هذه النزعات الغريزية تعبيرا غير مباشر ، أما فى رد الفعل فان سلوك الشخص يكون تعبيرا عن القوى الكابتة نفسها فيصبح الشخص كارها للجنس "الآخر" ، أو مبتعدا عن حب الظهور ، وعلى العموم يصطبغ سلوكه بالمبالغة فى كظم الدوافع الغريزية ، والابتعاد عن كل ما يشتم منه — ولو من بعيد — رائحة هذه الدوافع .

٣ — تكوّن الخُلق[٢] : إن الكيفية التى يعالج بها الصراع تؤدى الى صبغ الخلق بصبغات دائمة مدى الحياة . فهناك صفات خلقية كقوة العزيمة ، أو اشتداد المطامع ، أو الجبن ، أو الاندفاع . . . الخ تتكون كنتيجة لهذه المعالجة .

وكثيرا ما يكون التكوين الخُلقى مشتملا على بعض الخصائص اللاشعورية كالإلزام[٣] أو الحُصار[٤] ويطلق على هذه الحالات اسم "الخلق العصابى"[٥]

---

(١) Reaction Formation

(٢) Character-Formation

(٣) Compulsion

(٤) Obsession

(٥) Neurotic Character

وهو الخُلق الذى تنقصه المرونة ، وتقل فيه الواقعيـة ، ويبرز فيه الشذوذ ، وحالات الانحراف التى من هذا النوع أصعب علاجا من غيرها ، لأن الشذوذ يصبح داخلا فى بناء الخلق ، ومكونا لجزء من الشخصيـة ، بينما يسهل علاج غيرها نسبيا لأن الأعراض تكون منفصلة ، وغريبة عن الشخصية الأساسية ، وتبدو كأنها هى نتيجة إصابة سطحية .

٤ — الاضطراب العصابى : رأينا فى الحالات السابقة كيف أن نتيجة الصراع كانت تعبيرا فى (اتجاه واحد) عن "احدى" القوى المتصارعة . أما فى الاضطراب العصابى فالأمر ليس كذلك لأنه يتضمن تعبيرا ناقصا عن كليهما أو (حلا وسطا) للصراع لا يشبع أيا من الطرفين . وعلاوة على ذلك فان النزعات المكبوتة تحتفظ بطابعها الجنسى ولا تغيره كما هو الحال فى الإعلاء . وتعبر القوى المتصارعة عن نفسها تعبيرا ملتويا هو عبارة عن "الأعراض" العصابية . وبالاختصار فإن الأعراض هى تعبير مقنع عن الحياة الجنسية للطفولة ، يشمل الدوافع الغريزية والقوى الكابتة معا .

وهنـاك نوعان أساسيان من الاضطراب العصابى : اضطراب هستيرى واضطراب حصارى[1] .

والأعراض قد تكون إيجابيـة كالألم أو الانقباض ، أو سلبية كانعـدام إحساس ما أو تعطيل قوة ما .

وقد تكون هذه الأعراض جثمانية : كالتبول المستمر ، أو فقد الإبصـار ، أو عقلية صرفة ، كالخوف الشديد أو الميل الى تعذيب الغير .

وأخيرا قد لا تكون الأعراض محدودة كلّ هذا التحديد ، بل تكون مائعة من وجهة التشخيص ، كالشكوى من الشعور بالتعاسة الشديدة ، أو عدم المقدرة على معالجة المشاكل العائليـة ، أو مشاكل الزوجيـة ، أو الفشل فى الحيـاة الاجتماعية ، أو المهنية .

ويرجع الاضطراب الى الظروف المصاحبة لتطور الغريزة فى عهد الطفولة إذ تكسب الشخص بنـاءً عقليا خاصا ، يجعله قابلا للتأثر بصفة خاصـة

---

(١) Ernst Jones : Psycho Analysis, p. 47

عند ما تواجهه ظروف معينة ، وقد تكون هذه الظروف تافهة فى نظر "الشخص العادى" وقد تكون مما يعتبره الشخص العادى ظروفا صعبة ، كالحزن أو الإفلاس أو التعرض للأخطار الى آخر ذلك ، وقد تكون متسعة بحيث تشمل الحياة بأكملها ، ومن هذا القبيل الحالات التى تنهار فيها الشخصية فى أعمار معينة عندما يواجه المرء بمشكلات الحياة . ففى أمثال هذه المواقف نجد أن الشخص المهيأ للاضطراب قد انطوى على نفسه هروبا من مواجهة المشكل فيحدث عنده ما يسمى بالقبض إذ يتخلل عن مواجهة الحياة ومعالجة مشاكلها بأن يخلق لنفسه جوا وهميا يخدعه عن حقيقة الأمر ، ولا تلبث العناصر الخيالية أن تندمج مع عناصر لا شعورية قديمة من نوعها ، فيتسبب عن ذلك نكوص الى مستوى طفلى ، وبذلك يتشعع الاضطراب فى طبقات أعمق فأعمق من اللاشعور ، وتكون النتيجة أن النزعات القديمة المكبوتة تتحرك ويزداد الحاحها فى سبيل الإشباع ، وتكون الأعراض معبرة عن هذه النزعات .

وعلى ذلك فكل اضطراب عصبى عبارة عن نتيجة لصراع لاشعورى بين العناصر الأساسية فى الشخصية .

وكل مصاب بالاضطراب ، هو شخص "موثق" الى فترة معينة من حياته الماضية تثيرها مواجهة مواقف تعتبر — من وجهة نظر اللاشعور — تكرارا لأحداث هذه الفترة الماضية ، ويمكن توضيح ذلك بمعادلة كالآتية :

أسباب الاضطراب العصابى = { استعداد ناتج عن التثبيت الغريزى } + تجارب طارئة[1]

الاستعداد الموروث — تجارب الطفولة

وعلى ذلك فأساس الاضطراب يوضع فى الطفولة ، ويبقى كامنا ، حتى يأتى من المواقف الانفعالية فيما بعد ما "يطابق" الأساس ، فيتصل به ، فتكون الأعراض ، التى تعبر عن هذا الحلف بين الماضى والحاضر نتيجة لهذا الاتصال .

(1) Freud . Introd. Lect. to Psyeno-Analysis

وعلى ذلك فالأعراض العصابية نكوص إلى جنسية الطفل ، مبنى على تثبيت حدث فى عهد الطفولة ، والعلاقة بين النكوص والتثبيت علاقة وثيقة .

فمعنى التثبيت كما قلنا أن بعض مكونات الغريزة لاتصل إلى نهاية المرحلة المعدّة لها بل تقف فى وسط الطريق فيقال إنها (ثبتت)، بينما تستمر المكونات الأخرى فى سبيل تطورها الطبيعى، كالقافلة التى يتخلف بعض أفرادها أو كالجيش الذى يتقدّم مسافة بعيدة و يترك فى طريقه بعض المتخلفين ، وكلما كثر عدد المتخلفين قل عدد الجيش المتقدّم ، وقد يصل من القلة إلى درجة تجعله عاجزا عن التقدّم عند أوّل صدمة " فينكص " على عقبيه . فالتثبيت فى عهد الطفولة إذن هو الذى يمهد الطريق للنكوص فى عهد " النضج ". والوصف الصحيح للحالة هو أن العقل ، يجد نفسه أمام مشكل يتعذر عليه مواجهته لأسباب لاشعورية ، فينكص إلى عهد الطفولة فى بعض نواحيه ، وليس ذلك بمستغرب لأن العقل يقول بلسان الحال " إنى لاأزال طفلا ، فلا قبل لى بمجابهة هذه المواقف "وهو طبعا لايقول ذلك صراحة و إنما تترجمه عنه الأعراض . فالأعراض كما قلنا ذات معنى وذات وظيفة معينة . و يمكن تلخيص هذه الوظيفة فى أنها تحقق ماتعذر تحقيقه فى عالم الواقع ، عن طريق الوهم أو الخداع . فكأن العقل إذ لا يجد الإشباع فى حاضره ينتقل إلى ماضيه ، و يبحث عن فترة كان يحصل فيها على إشباع خيالى — كما هو طبيعى فى الطفولة — فيكرر هذا الإشباع الخيالى بصورة مقنعة . وقد يكون هذا الاشباع لابأس به فى نظر اللاشعور — الذى يتجاهل الزمان — ولكنه يقابل بالذعر والتقزز من الشعور ، ولعلنا ندرك ذلك إذا تصورنا رجلا وجد نفسه مرغما — لاشعوريا — على أن يرضع من الثدى ، أو يجلس على " قصرية " . وعلى ذلك فهذا الاشباع الخيالى لايقوم بالنسبة للشعور مقام الاشباع الحقيقى وهذا التفاوت بين قيمة الاشباع فى نظر الشعور واللاشعور من أهم مظاهر الاضطراب العصابى .

والصراع الداخلى فى حالة المصاب بالاضطراب العصابى يختلف تماما عن الصراع العادى بين نزعتين متضادتين فى الشعور ، لأن الصراع فى الحالة الأخيرة هو بين نزعتين تتبعان نفس المستوى من العقل ؛ بينما فى الحالة المرضية ، يكون الصراع بين مستويين مختلفين . فاحدى النزعتين شعورية ، والأخرى لاشعورية ، وهذا هو السبب فى أنه لايمكن أن يحل الصراع بينهما ، لأن النزعتين المتعارضتين

لا تتقابلان وجها لوجه . ولا يمكن الوصول الى قرار حاسم الا اذا تقابلتا فى نفس المستوى . ووظيفة العلاج التحليلى هى انتشال النزعة اللاشعورية الى مستوى الشعور ، وبذلك فقط يمكن حل الصراع الذى يصبح فى هذه الحالة بين متكافئين .

ويظن البعض خطأ أن العلاج التحليلى يوعز الى المريض أن يطلق العنان لشهواته الجنسية ، وألا يقيد نفسه بالقيود الخلقية المألوفة ، وليس ذلك صحيحا بالمرة ، لأن وظيفة التحليل أن يعنى بالكبت الذى انصب على مكونات الغريزة فى الطفولة ، باعتبار انه السبب الأساسى لما قد ينشأ بعد البلوغ من متاعب جنسية أو غيرها ، ومن الأخطاء الشائعة أن الامتناع الجنسى سبب من أسباب الاضطراب العصبى . كما أن من الاخطاء الشائعة اعتبار الحرية الجنسية علاجا للحالات العصبية . وكلا الأمرين يصح أن يكون مظهرا من مظاهر الحياة السليمة أو شبهها ، كما يصح أن يكون مظهرا من مظاهر الانحراف أو عرضا من الاعراض المرضية ، ويتوقف ذلك على مقدار تلونه بلون الصراع ، وأثره فى السلوك العام للشخص ، وعلى الصلة بينه وبين باقى نواحى شخصيته . وكلاهما فى الواقع نتيجة لاسبب ، هو نتيجة لما مر بالفرد فى طفولته ، ولكنه ليس بعلاج ، لأن العلاج ينصب على الماضى ويجعل الشخص أقدر على مواجهة الحاضر وما فيه من أزمات ومصاعب .

أمثلة لبعض أنواع الاضطراب العصابى [1]

القلق العصابى [2] :

ويظهر فى حالة من القلق العام تنتاب المريض ، يصحبها ارتعاش وينصب العرق بغزاره من جسمه فى هذه الأحوال ، وتنتابه الأحلام المفزعة وينوء تحت شعور بالهم والتوجس ، وعناصر الصراع فى هذه الحالة تكون متقاربة بمعنى أن العناصر المكبوتة تكون قريبة من الشعور فتكون الأنا مهددة تهديدا مباشرا ، وذلك هو سر الشعور بالقلق والهم والتوجس .

---

(1) Hadfield : Psychology and Morals (2) Anxiety Neurosis

النوراستينيا [١] :

وتظهر فى شعور بالتعب والإنهاك العام — ينام المريض نوعا عميقا ولكن يستيقظ متعبا أكثر مما كان ، وهنا تكون عناصر الصراع بعيدة عن الشعور ، وعميقة لدرجة تجعل الشخص لايشعر بمخاوف أو رغبات أو قلق . بل بالعكس كثيرا مايكون المريض هادئا ، باليدا ، لا يبدو عليه أثر الرغبة أو العاطفة المشبوبة .

ولكنه دائما متعب ، وهو متعب لأنه يصرف طاقته فى كبت النزعات وإبقائها بعيدة عن الشعور ، فكأن هذه المعركة اللاشعورية الدائمة تُنهك قواه انها كا دائما بغير أن يشعر . وهو ينجح فى محاولته ، ولكن القوى التى يستخدمها لاتترك له بقية تكفى لشئون حياته العادية ، فيشعر بالتعب الجثمانى والانحطاط العقلى الدائم .

وكثيرا ماتبدو أمثال هذه الأعراض على بعض ذوى الخلق الجامد ، الذين يصرفون طاقتهم فى كبح نزعاتهم ولايسمحون لأنفسهم بأن يتمتعوا بما يعتبره الآخرون مشروعا ، وأمثال هؤلاء قديعتبرون فى نظر الناس "طيبين" ولكن يندر أن يكونوا سعداء .

الهستريا التحولية [٢] :

هنا تظهر أعراض الصراع على شكل نقص أو عجز جثمانى محدد ، كفقد الابصار أو الاحساس ، أو فقد القدرة على تحريك بعض الأعضاء ، أو على شكل آلام تصيب اجزاء معينة من الجسم ، أو قىء مستمر ، إلى غير هذه من الأعراض الجسميه التى ليس لها ما يبررها من الوجهة الفسيولوجية . وتطلق على هذه الأنواع الهستريا التحولية ، لأن العَرض الجسمى يُستبدل بالعرض النفسى ، أى أن الصراع النفسى يتبلور ويتخذ مظهرا جسميا يتعلق به . وهذا المظهر يؤدى فى الغالب إلى نقص فى التوتر النفسى ، فكثيرا ما تتحسن حالة المريض النفسية كثيرا بعد ظهور العرض الجسمى .

وهناك حالات لا يتحول فيها الصراع الى عرض جثمانى ، بل يظهر على شكل عرض عقلى محدد ، كفكرة ثابته ، أو انفعال عنيف ، ومثل ذلك أنواع المخاوف [٣]

---

(١) Neurasthenia (٢) Conversion Hysteria (٣) Phobias

الحُصار [١] والإلزام [٢] :

وفيهما يجد المريض أن هناك أفكارا تطارده وتضطره الى أنواع من السلوك الشاذ كأن يغسل يديه باستمرار ومن هذا القبيل سيدة كانت تمر على البيوت وتطلب من الناس أن يقفلوا صنابيرهم ولا يدعوها تسح الماء ، وأخرى كانت لا تتناول من أحدشيئا إلا اذا غسل مرارا وتكرارا ، وثالثة تقوم من نومها مرارا لتتأكد من أن الأبواب مقفله . والحصار والالزام متشابهان وانما يطلق الحصار على الحالات التى يغلب فيها تسلط الفكرة بينما يطلق الالزام على الحالات التى يغلب فيها أن يجد المريض نفسه ملزما بالقيام بأعمال معينة .

ازدواج الشخصية [٣] :

وقد اشتهر أمره لما يثيره من الغرابة إذ يكون للشخص الواحد جانبان أو شخصيتان منفصلتان ، تجهل كل منهما كل شئ عن الأخرى ، والواقع أن هذه حالة متطرفه مما يحدث لكل فرد من انقسام فى شخصيته يتجلى فى أحلامه مثلا ، فلا شك أن الأحلام تمثل وجهة نظر تختلف تماما عن وجهة نظر الشعور ويمكن النظر اليها على أنها تعبير عن شخصية ثانية للانسان .

الاضطراب العقلى (الجنون) أو (الذُهان) [٤] :

وهى حالات متطرفه يصل فيها الشعور إلى أن يصبح خاضعا خضوعا تاما للعوامل اللاشعورية ، وتصبح الذات عبارة عن بوق لهذه العوامل وتفقد كل مميزاتها باعتبارها احدى القوى الفعالة فى الشخصية .

أمثلة لبعض الحالات

ليس شيء أكثر تشويقا من الدراسة التفصيلية لحالات الاضطراب العصبي ومتابعة الأثر الذى يحدثه العلاج التحليلى فيها . ولكن حجم مثل هذا الكتاب لا يتيح لنا أن نفعل ذلك ، لأن دراسة تفصيلية لحالة واحدة ، قد تستغرق كل صفحاته أو أكثر . ولكن ذلك لا يمنع أن نورد تلخيصا لبعض حالات نموذجية . ولا يقل

---

(١) Obsession
(٢) Compulsion
(٣) Dual Personality
(٤) Psychosis

تشويقا عن ذلك تحليل بعض الأعمال الفنية الكبرى أو دراسة طوز معينة من الشخصيات ، وفيما يلى بعض الملاحظات مأخوذة عن فرويد من (" بحوث مجموعة المجلد ٣ ، ٤ ")[1] .

١ — رجل فى سن السابعة والعشرين موهوب متعلم تعليما راقيا ، كان يشكو من أن حياته مملوءة بصراع مع والدته ، أثر تأثيرا سيئا فى حياته الخاصة والعامة.

وهذا الصراع يرجع إلى عهد الطفولة ، فقد كان إلى سن الرابعة وحيد أمه ، ولم يكن يشاركه أحد فى حبها وحنانها ، وفى حوالى هذه السن ، ولد له أخ ، وكانت نتيجة ذلك أن أصبح عنيدا ، صعب القياد . وأصبح يستجلب سخط أمه دائما ، بعد أن كان طفلا هادئا سهل القياد ، وعندما أتى للعلاج كانت غيرته من أخيه قد اختفت تماما ، وكان يعامل أخاه هذا بمنتهى العناية ، ولكنه كان يشكو من نزوات طارئة تملكه أحيانا ، فيشعر بدافع فجائى لأن يعذب حيوانا أليفا له ، ومن تلك كلابه وطيوره التى يعنى بها عادة كل العناية ، و يُفهم من هذا أن رغبته فى انزال الأذى بأخيه ، قد تحولت إلى هذه النزوات نحو حيواناته الأليفة ، بينما أصبحت معاملته لأخيه معاملة مودّة عادية .

وقد ظهر أنه فى طفولته قد هاجم أخاه وهو فى مهده ، كما ظهر أنه فى حوالى ذلك الوقت حدث أن أمسك بجميع ما استطاع أن يحصل عليه من آنية البيت وألقى بها خارجا من النافذة ، وهذا عمل رمزى يرمى إلى التخلص من هذا الضيف الثقيل وهو الأخ بإلقائه من النافذة ، و بما أنه لا يستطيع [2] أن يلقى الطفل بنفسه فهو يلقى الآنية بدلا منه . وهو لم يغفر لأمه إشراكها لأخيه فى محبته وذلك سر معاملته لها فى كبره .

٢ — حالة فتاة فى سن السابعة عشرة (دورا) كانت دائمة الاتهام لوالدها بأن له علاقات مريبة بمدام (س) ، وهى زوجة صديق له ، وكانت تتهم (س) نفسه وهو زوج هذه السيدة وصديق والدها ، بأنه يحاول أن يكوّن معها هى (دورا) ، علاقات من نفس النوع ، وقد كانت تنتابها أعراض هستيرية ، هى عبارة عن نوع من السعال والألم فى الحلق ، مع فقدان الصوت ، يتردد عليها بين حين وآخر .

(١) Freud : Collected Papers (٢) الاستطاعة هنا نفسية أكثر منها مادية .

وكانت العلاقة بين العائلين علاقة متشابكة الأطراف . والغريب أن والدة دورا كانت امرأة هادئة لايهمها من أمر علاقات زوجها شيء ، وكانت الابنة تحتقر أمها وتعاملها معاملة شخص فى مستوى أقل من مستواها ، ولكنها كانت تقوم "بدلها" بدور الغيرة على الأب من علاقاته مع مدام (س) ، وكانت دائما تحتج على أبيها ، وتستاء من سلوكه ، وتشك فى كل علاقة له مع مدام (س) ، وقد كان أصل علاقة الأب بمدام (س) أنها كانت تمرضه عندما كان مريضا بالسل ، الذى شفى منه بعد ذلك بفضلها كما يقول ، ولكن هذه الحالة جعلته غير قادر على أن يكون له اتصال جنسى حقيقى مع أية امرأة ، ويبدو من هذا الشرح كيف أن الفتاة كانت "مندمجة" فى شخصية الأم رغم كراهتها الظاهرة لها ، وكيف أنها كانت "تحب" والدها وتغار عليه من مدام (س) ، ولكن التحليل أظهر أكثر من ذلك وهى أنها فى الواقع كانت تحب مدام (س) وتغار عليها من والدها ، وهذا هو تفسير الأعراض التى كانت تنتابها وهى (السعال) حيث إن سر اهتمام مدام (س) بوالدها كان مرضه الصدرى فكأنها اصطنعت "لاشعوريا" مرضا مشابها له لكى تفوز بعنايتها . كما أن شعورها نحو زوج مدام (س) كان شعورا مزدوجا من حب وكراهية . فقد كانت تعنى فى مبدأ الأمر بأبناء مدام (س) وتعلمهم ، وكانت الأعراض تنتابها فى فترات غياب (س) ، وقد كانت مقابلتهم الأولى فى إحدى المصايف ولكن (س) على ما يظهر حاول أن يقبلها فى يوم من الأيام ، فانتزعت نفسها منه وأصبحت تعمل على ألا تبقى معه وحيدة فى مكان ما ، والغريب أنها لم تذكر هذه القصة لوالدها إلا بعد مضى مدة ، ولما سئلت أثناء التحليل عن سبب ذلك ذكرت أنها كانت "تتوقع" أن يعيد الكرة .

ومن الحالات الطريفة تلك التى يظهر فيها أن الشخص يجاهد فى حياته ويكافح للوصول إلى غرض يعتبره غاية حياته ، حتى إذا نجح ووصل إلى هذا الغرض انهارت قواه ، أو أصبح فى حالة لايستطيع معها أن يقطف ثمرة متاعبه ، وإليك أمثلة من هذه الحالات :

٣ — فالحالة الأولى : فتاة فى مقتبل العمر لم يستطع المنزل أن يشبع رغباتها الجامحة لأنها لم تجد من يقدر جمالها وذكاءها ، فهربت وظلت تحيا حياة شاردة

حتى التقت بفنان موهوب استطاع أن يقدر ميزاتها ، فعاشرته وعاشت سعيدة معه لا ينقصها إلا أن يعترف المجتمع بعلاقتها به فتحصل على السعادة الكاملة ، وبعد بضع سنين استطاع هـذا الفنان أن يحصل على موافقة عائلته على الزواج منها . وما أن وصل ذلك إلى سمعها حتى انهارت انهيارا . فأهملت المنزل الذى كانت تصبو إلى أن تكون سيدته المعتبرة ، وطافت بنفسها أوهام غريبة ، فكانت تتخيل أقارب زوجها يتآمرون عليها ويظلمونها ، وظهرت عليها علامات جديدة للغيرة الشديدة ، فحرمت على رجلها كل اتصال اجتماعى ، وتدخلت فى عمله وأربكته ، وسرعان ما أصيبت بمرض عقلى غير قابل للشفاء .

٤ — والحالة الثانية ، حالة مدرس فى الجامعة كان أمله بعد سنوات طويلة أن يحل محل الأستاذ الذى تتلمذ على يديه ، وزامله سنين طويلة ، وعند ما تقاعد هذا الأستاذ المسن ، واتفق جميع زملائه على أن صاحبنا هذا هو الوحيد الذى يصلح لأن يأخذ مكانه ، بدأ يتردد ، بدأ يتحدث عن ضعف مواهبه ، وعدم أهليته لملء الفراغ الذى طُلب منه أن يملأه ، وما لبث أن أصيب بحالة من الوجوم والانقباض أوقفت كل نشاطه سنين طويلة .

ويظهر أن هذه الحالات راجعة إلى أنه كثيرا ما يُسمح بظهور الرغبة وترددها فى الشعور ، طالما كانت بعيدة التحقيق ، إذ يكون خطرها فى هـذه الحالة ضئيلا ، فاذا تغيرت الأمور وأصبح الخيال حقيقـة توشك أن تصبح واقعـة ثارت الأنا ضـدها ، وعملت على منع تحقيقها بمختلف الوسائل ، ويظهر من التحليل أن الدافع الذى يؤدى إلى هذه الحال هو قوة مشتقة من " الأنا العليا " تحرم على الشخص اجتناء الثمرة التى جاهد فى سبيلها ، عقابا له على خطيئة لا شعورية .

فالنزعات الغريزية التى ترمى إلى الأشباع تروم تدمير كل عقبة فى سبيل هذا الإشباع فتتمنى الموت لمن يقفون فى سبيلها ، والقوى المشتقـة من الأنا العليا تعارض فى هـذه النزعات المدمِّرة ، وتطلب إلى الأنا إيقافها ، ولكن هـذه لا ترى خطرا منهـا ما دامت بعيدة عن التحقيق ، فاذا تحققت فإنها تنزل على إرادة الأنا العليا ، وتُنزل العقوبة التى تؤدى إلى الحرمان من اجتناء ثمرة النجاح .

ولعل من خير الأمثلة على ذلك مثال "ليدى مكبث[1]" من شخصيات شكسبير وهى التى دفعت زوجها دفعا لتحقيق النبوءة التى تنبأت له بها الساحرات، فقتل الملك "دنكان" وعملت بنفسها على إبعاد الشبهة عنه. فلما تم النجاح ونالت أمنيتها، فأصبح زوجها ملكا، وهى بالتالى ملكة، لم تستطع تحمل النجاح فانهارت وأصاب عقلها الخبل وما لبثت أن ماتت. ومن الغريب أن شكسبير قد أوضح الحالة بما لا يترك مجالا للشك فى فهمه لها، فعند ما دخلت لترى الملك وهو مقتول، وتأخذ من دمه ما تلطخ به أيدى الحارسين اللذين دست لهما المخدر فى الخمر حتى تقع عليهما تبعة القتل، خرجت وهى تقول "ان الرجل العجوز كان يشبه والدى وهو ملقى على سريره" فكأن الجريمة كانت من الوجهة اللاشعورية جريمة ضد والدها — وذلك يظهر لنا صدى "عقدة أوديب" التى تكونت فى الصغر، والأنا العليا كما عرفنا من ثمرات هذه العقدة.

وقد كان بودنا أن نطيل فى هذا الباب ولكن الفراغ لا يسمح بأكثر من هذا.

---

(1) Lady Macbeth